المحاضرة العاشرة

اللغة في الخطاب الدعوي

الدكتور عبدالرحمن إبراهيم الكيلاني
الجامعة الأردنية

الخميس 17 محرم 1435هـ- الموافق 21 تشرين الثاني 2013م

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد،

لم تنفك آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم من التأكيد على ضرورة احتكام الخطاب الدعوي إلى جملة من القواعد والأصول وانضباطه بمجموعة من الضوابط والشروط التي تعين على نجاح الدعوة إلى الله وتأثيرها، وتساعد في فاعليتها وقوتها، وتسهم في صيرورتها إلى أهدافها وغاياتها المرجوة منها.

وإن الدارس لكتاب الله الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ليجد التوجيه المستمر للدعاة إلى الله في كل عصر وزمان إلى ما ينبغي أن يتحقق في خطابهم للناس من أوصاف تمكِّن من النفاذ إلى عقول المدعوين وقلوبهم، ومن النجاح في صياغة أفكارهم وشخصياتهم، ومن التأثير في إصلاح حياتهم، ومن القدرة على تحويل مسار الأفراد والمجتمعات من طريق الانحراف والفساد، إلى طريق النجاة الاستقامة والصلاح، ومن ذلك على سبيل المثال :

- توجيه القرآن الكريم إلى ضرورة اتسام الخطاب الدعوي بالرشد والحكمة، واختيار أحسن الأساليب والوسائل في إيصال الدعوة إلى الغير كما في قوله تعالى (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) النحل / (125).

- وتوجيه القرآن الكريم إلى اشتراط تأسيس الخطاب الدعوي على منهجية علمية سليمة، وعلى أصول معرفية صحيحة، ترتبط فيها المقدمات بالنتائج ، والوسائل بالمقاصد، والأسباب بالمسببات، كما في قوله تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي

أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) يوسف / (108).

- وتوجيه القرآن الكريم إلى ضرورة اتصاف الخطاب الدعوي بالقوة والجرأة والوضوح، كما في قوله تعالى (يحيى خذ الكتاب بقوة) مريم/ 12.

- والتوجيه الدائم بضرورة اتسام الخطاب الدعوي بالرفق واللين مع المخالف للرأي كما في قوله تعالى (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) طه :43-44.

وفي حديث أَبِي مُوسَى، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: «بَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا»

إلى غيرها من النصوص الكثيرة التي ترشد إلى أن الخطاب الدعوي وفق ما يقدمة القرآن الكريم والسنة المطهرة، ليس خطابا تلقائيا عفويا يقدّم للناس كيفما اتفق ، ولا هو مجرد خطاب وعظي يقوم على أساس استثارة عواطف الناس ومشاعرهم من خلال الترهيب والترغيب غير المنضبط بالقواعد والأصول العلمية، وإنما هو خطاب علمي له أصوله وقواعده التي يرتكز عليها، وله مناهجه وطرقه التي يختطها، وله شروطه وضوابطه التي يتقيد بها، كما أن له خصائصه ومزاياه التي يستقل بها.

هذا، وتعدُّ لغة الخطاب من المفردات الأساسية في الخطاب الدعوي، ذلك أن اللغة هي الوسيلة التي من خلالها يتم تقديم الخطاب وتعريف الناس بمضامينه، وبيان حقائقه ومعانيه، والكشف عن قيمه وأفكاره الثاوية فيه، وهي قضية قد ركّز عليها القرآن الكريم كثيرا ونبّه إليها باعتبارها شرطا أساسياً من شروط فاعلية

الخطاب وتأثيره ومقوّما رئيساً من مقوّمات نجاح الدعوة وبلوغها لمقاصدها وأهدافها.

وستعمد هذه الورقة إلى تحديد الخصائص العامة التي ينبغي أن تتصف به لغة الخطاب الدعوي الراشد الأصيل وفق ما وجّهت إليه النصوص الشرعية من القرآن الكريم والسنة المطهرة، ثم النظر إلى مدى تحقق هذه الخصائص والمزايا في لغة الخطاب الدعوي المعاصر، مع إيراد نماذج عملية للغة الخطاب الدعوي في مصادره الأصيلة وشواهده المعاصرة، وذلك للمقارنة بين المثال والواقع.

وستكون خطة الورقة على النحو الآتي:

أولاً : عناية القرآن الكريم بموضوع لغة الخطاب.

ثانياً : الخصائص العامة للغة الخطاب الدعوي الراشد:

- الوضوح واليسر.
- الواقعية والعصرية.
- التنوع والجمال.
- الوسطية والاعتدال.

والله أسأل أن يوفقني فيما أنا بصدد بيانه وتفصيله، إنه نعم المولى ونعم النصير.

أولا: القرآن الكريم بلغة الخطاب الدعوي:

يمكن تعريف لغة الخطاب الدعوي بأنها مجمل النشاط اللغوي المستعمل للتوصل إلى تبليغ الإسلام للناس وتعليمه وتطبيقه في الحياة (١).

ذلك أن الخطاب الدعوي له ثلاث مستويات ومراحل من حيث التدرج فيه وحمل الناس عليه (٢):

المرحلة الأولى: هي المرحلة التبليغية، وتتمحور حول التعريف بحقيقة الدين وأصوله وأهدافه وجميع مشمولاته ومضامينه.

المرحلة الثانية: هي المرحلة التكوينية، وتتمحور حول التربية والتعليم وصياغة شخصية الأفراد والجماعات التي استجابت لداعي الله في مرحلة التبليغ.

المرحلة الثالثة : هي المرحلة التنفيذية، وتتمحور حول تطبيق الدين بتنزيل مضامينه وأحكامه على الواقع، والانتقال به من حيّز التنظير والعلم إلى حيز التطبيق والعمل.

ولقد أرشد القرآن الكريم إلى هذه المستويات الثلاث للخطاب الدعوي في قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) **الجمعة / (2)**

فتلاوة آيات الكتاب هي التبليغ له والتعريف به ودلالة الناس علي. والتزكية وتعليم الكتاب هي تكوين الأمة وإعدادها لتكون حاملة لمضامين الرسالة وقيمها وأخلاقها وفكرها.

---

(١) هذا التعريف مستفاد من تعريف الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني لعلم الدعوة، وتعريف الدكتور بشير مساري للغة الخطاب الدعوي، انظر: محمد أبو الفتح البيانوني / المدخل إلى علم الدعوة، ص 19، وبشير المساري، لغة الخطاب الدعوي ص 23.

(٢) انظر البيانوني / المدخل إلى علم الدعوة ص 16-17.

وتلاوة الحكمة، هو التطبيق العملي لهذا الدين، ذلك أن الحكمة هي السنة التي تمثل التطبيق العملي للأحكام ومعانيه.

و لقد تضمنت آيات القرآن الكريم العديد من الإشارات والتنبيهات التي تلفت الأنظار إلى أهمية لغة الخطاب الدعوي في جميع مراحل ومستويات الدعوة إلى الله تعالى وإلى دورها المحوري في تبليغ الرسالة وإرشاد الناس إليها، وفي تزكيتهم وتعليمهم والتأثير بهم وتغيير سلوكهم ، وفي حملهم على الالتزام بها وتطبيقها وتمثّلها في حياتهم.

فالقرآن الكريم يوجّه مثلا إلى ضرورة الالتفات إلى طبيعة المخاطب وجنسه لتحديد لغة الخطاب المناسبة له، نجد هذا في قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ابراهيم / (4).

حيث يبين الله تعالى في هذه الآية سنته المطردة في بعث الرسل بلغة أقوامهم ، وبيّن سبب هذا : بأنه أدعى إلى وضوح الدعوة وتبيّن معاني الرسالة والوقوف على حقيقيتها ومعرفة مضامينها وأحكامها ، قال الشيخ الطاهر ابن عاشور : "وَاللّسَانُ: اللُّغَةُ وَمَا بِهِ التَّخَاطُبُ. أُطْلِقَ عَلَيْهَا اللِّسَانُ مِنْ إِطْلَاقِ اسْمِ الْمَحَلِّ عَلَى الْحَالِّ بِهِ، مِثْلَ: سَالَ الْوَادِي.

وَالْبَاءُ لِلْمُلَابَسَةِ، فَلُغَةُ قَوْمِهِ مُلَابِسَةٌ لِكَلَامِهِ وَالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ إِلَيْهِ لِإِرْشَادِهِمْ.

وَالْقَوْمُ: الْأُمَّةُ وَالْجَمَاعَةُ، فَقَوْمُ كُلِّ أَحَدٍ رَهْطُهُ الَّذِينَ جَمَاعَتُهُمْ وَاحِدَةٌ وَيَتَكَلَّمُونَ بِلُغَةٍ وَاحِدَةٍ، وَقَوْمُ كُلِّ رَسُولٍ أُمَّتُهُ الْمَبْعُوثُ إِلَيْهِمْ، إِذْ كَانَ الرُّسُلُ يُبْعَثُونَ إِلَى أَقْوَامِهِمْ، وَقَوْمُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُمُ الْعَرَبُ، وَأَمَّا أُمَّتُهُ فَهُمُ الْأَقْوَامُ الْمَبْعُوثُ إِلَيْهِمْ وَهُمُ النَّاسُ كَافَّةً.

وَإِنَّمَا كَانَ الْمُخَاطَبُ أَوَّلاً هُمُ الْعَرَبُ الَّذِينَ هُوَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ وَنَزَلَ الْكِتَابُ بِلُغَتِهِمْ لِتَعَذُّرِ نُزُولِهِ بِلُغَاتِ الْأُمَمِ كُلِّهَا، فَاخْتَارَ اللَّهُ أَنْ يكون رَسُوله- عَلَيْهِ الصَّلَاة والسّلام- مِنْ أُمَّةٍ هِيَ أَفْصَحُ الْأُمَمِ لِسَاناً، وَأَسْرَعُهُمْ أَفْهَاماً، وَأَلْمَعُهُمْ ذَكَاءً، وَأَحْسَنُهُمْ اسْتِعْدَادًا لِقَبُولِ الْهُدَى وَالْإِرْشَادِ، إلى أن قال "وَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ إِلَيْهِمْ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، لِأَنَّهَا أَصْلَحُ اللُّغَاتِ جَمْعَ مَعَانٍ، وَإِيجَازَ عِبَارَةٍ، وَسُهُولَةَ جَرْيٍ عَلَى الْأَلْسُنِ، وَسُرْعَةَ حِفْظٍ، وَجَمَالَ وَقْعٍ فِي الْأَسْمَاعِ، وَجُعِلَتِ الْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ هِيَ المتلقية لِلْكتاب بادئ ذِي بَدْءٍ، وَعُهِدَ إِلَيْهَا نَشْرُهُ بَيْنَ الْأُمَمِ." (١)

وبناء على ضرورة مراعاة لغة المخاطب في اختيار نوع اللغة في الخطاب الدعوي فنّد القرآن الكريم الشبهة التي أثارها أعداء الإسلام وخصومه في استنكارهم نزول القرآن الكريم باللغة العربية في الوقت الذي نزلت به الكتب السماوية الأخرى بلغات أعجمية، وقد فند القرآن الكريم هذه الشبهة الغريبة ودحضها بناء على ما فيها من مجافاة لقواعد الدعوة الراشدة والرسالة الناجحة التي تراعي لغة المدعوين وأحوالهم عند اختيار لغة الخطاب الدعوي فقال سبحانه :(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) فصلت / (44).

قال ابن كثير :" فَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْقُرْآنَ وَفَصَاحَتَهُ وَبَلَاغَتَهُ، وَإِحْكَامَهُ فِي لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، نَبَّهَ عَلَى أَنَّ كُفْرَهُمْ بِهِ كُفْرُ عِنَادٍ وَتَعَنُّتٍ، كَمَا قَالَ: (وَلَوْ نزلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ) **[الشُّعَرَاءِ: 198، 199]. وَكَذَلِكَ لَوْ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ كُلُّهُ بِلُغَةِ الْعَجَمِ، لَقَالُوا عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ:** (لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) **أَيْ: لَقَالُوا: هَلَّا**

---

(١) محمد الطاهر ابن عاشور/ التحرير والتنوير: 187/13 .

أُنْزِلَ مُفَصَّلًا بِلُغَةِ الْعَرَبِ، وَلَأَنْكَرُوا ذَلِكَ وَقَالُوا: أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ؟ أَيْ: كَيْفَ يَنْزِلُ كَلَامٌ أَعْجَمِيٌّ عَلَى مُخَاطَبٍ عَرَبِيٍّ لَا يَفْهَمُهُ(١).

وإن مراعاة لسان المدعوين ولغتهم عند اختيار لغة الخطاب الدعوي، على وفق ما وجّه وأرشد له القرآن الكريم، لا تقتصر على مجرد أن يكلم كل قوم بلغتهم الخاصة بهم مجرد فيكلم الصينيون باللغة الصينية والروس باللغة الروسية، وإنما تعني أيضا مراعاة طبيعة كل فئة مخاطبة فيخاطب الخواص بلسان الخواص، والعوام بلسان العوام، ويكلم الناس في الشرق بلسان أهل الشرق، وفي الغرب بلسان أهل الغرب، ويخاطب الأطفال بلغتهم التي يفهمونها ويدركونها، ويخاطب الناس في القرن الحادي والعشرون بلسانهم ولغتهم لا بلسان قرون مضت (٢).

وفضلا عما وجّه إليه القرآن الكريم من النظر إلى طبيعة المخاطَب في سبيل اختيار لغة الخطاب المناسبة له حتى يفهمها ويدركها ويتفاعل معها ، فإنه قد وجّه أيضا إلى الاهتمام بالأسلوب والمفردات والعبارات التي تتضمنها لغة الخطاب الدعوي حتى يكون وقعها قويا وعميقا في نفوس المدعوين ، ولهذا فقد جاء تأكيد القرآن الكريم الدائم على ضرورة اقتران لغة الخطاب الدعوي بالأسلوب الحسن والحكمة الحسنة كما في قوله تعالى :(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ) البقرة / (83).

حيث قرن الله تعالى في هذه الآية الكريمة بين الأمر بأصول الدين من عبادة الله وحده وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وبرّ الوالدين والإحسان إلى الأقارب، وبين

---

(١) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم: 7/ 185.

(٢) يوسف القرضاوي/ خطابنا الإسلامي في عصر العولمة ص 35.

الأمر بالقول الحسن للناس، وهذا يعني أن حسن اللغة في الخطاب والبعد عن الفحش والإساءة والتجريح، هو من صلب الدين ومن ضرورات الشريعة وأنه ليس قضية ثانوية أو نافلة من نوافل الأمور ومكمّلاتها.

وقد تأكد هذا الأمر في آيات أخرى كقوله تعالى : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) النحل / (125).

ويلاحظ في هذه الآية كيف ميّز القرآن الكريم بين مقام الوعظ وبين مقام الجدال، ففي مقام الوعظ اشترط ان تكون الموعظة فيه حسنة لأن المدعو قد لا يكون مخالفا ولا معاندا ولا خصما للواعظ أو للداعي، ولكنه في مقام الجدال لم يُكتف بأن يكون جدالا حسنا فقط وإنما اشترط فيه أن يكون بالأحسن، لأن الجدال مبناه على المخالفة والمشادة والمغالبة بين الطرفين، وهذا يقتضي اختيار أحسن العبارات وأجملها وألطفها وأرقها حتى لا يوغر صدور المخالفين أو يثير عصبيتهم وكراهيتهم وغضبهم.

هذا، و يبلغ القرآن الكريم الغاية في التأكيد على أهمية تحلية لغة الخطاب الدعوي بمعاني الحسن وقيم الجمال عندما يبين اطراد هذا المنهج حتى مع المستكبرين عند تعريفهم أول الأمر بالرسالة وطبيعتها، حيث أمر الله تعالى نبيه موسى وهارون بتبليغ الدعوة إلى فرعون واشترط فيها أن تكون بِكَلَامٍ جميل حسن رَقِيقٍ لَيِّنٍ قَرِيبٍ سَهْلٍ فقال : (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) طه /(43)- (44).

ذلك أن الْمَقْصُودُ مِنْ دَعْوَةِ الرُّسُلِ حُصُولُ الِاهْتِدَاءِ لَا إِظْهَارُ الْعَظَمَةِ وَغِلْظَةَ الْقَوْلِ بِدُونِ جَدْوًى، وهذا لا يتأتى إلا إذا توافرت في لغة الخطاب ما يدعو إلى الاستجابة لها والتأثر بها.

وإذا أجلنا النظر في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فسنجد العديد من النماذج الدالة على أهمية إتقان اللغة في الخطاب الدعوي وأنه يتعين على الداعي إلى الله أن تكون لديه القدرة على اختيار المفردات المناسبة والأدوات والأساليب الملائمة والمؤثرة بالآخرين، فالرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد على أهمية الالتزام بأسلوب الرفق واللين في الخطاب الدعوي ويعدّه من أعظم أسباب نجاح الدعوة وتوفيقها فعن عائشة رضي الله عنها عن النبى – صلى الله عليه وسلم– قال « إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ولا ينزع من شىء إلا شانه[١].

ويؤكد عليه الصلاة والسلام عمليا: على ضرورة تجنب لغة الخطاب الدعوي لأسلوب التجريح والتشهير والغمز واللمز والإساءة للآخرين، حين يوجه عليه الصلاة والسلام نصيحته للمسيء والمخطئ دون أن يعينه ويحدده ؛ حتى لا يجرحه أو يشهر به أو ينتقص منه أمام الآخرين، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : "كان النبي صلى الله عليه و سلم إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل : ما بال فلان يقول ؟ ولكن يقول : ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟[٢]".

ثم هو –عليه الصلاة والسلام يوصي سفراءه ورسله إلى الناس أن ينضبط خطابهم الدعوي بمنهج التبشير والتيسير فعن أبي موسى الأشعري أن **النبي** صلى

(١) أخرجه مسلم باب فضل الرفق، حديث رقم 6767.

(٢) أخرجه أبو داود باب في حسن العشرة، حديث رقم 4790.

الله عليه و سلم بعث معاذا وأبا موسى إلى اليمن قال (يسّرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا) (١).

قال بعض شراح الحديث : (ولا تنفرا) من التنفير أي لا تذكرا شيئا يهربون منه، أي أن الخطاب ينبغي أن يكون جذابا ومحببا للناس وليس فيه ما يدعو إلى مجافاته والنفور عنه.

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي ترشد إلى مكانة اللغة ودورها المحوري في الدعوة إلى الله وإلى أثرها البالغ في نجاح الدعوة وفلاحها ، أو في فشلها وإخفاقها فيما إذا كانت اللغة غير مناسبة للمدعوين ، أو غير مستوعبة لطبيعة نفسياتهم وأنماط تفكيرهم.

ويمكن القول بأن لغة الخطاب في القرآن الكريم والسنة النبوية تمثل النموذج الأمثل للخطاب الدعوي الراشد الذي ينبغي أن يلتزمه الدعاة والمربون والمصلحون في دعوتهم للناس وخطابهم للغير وفي سعيهم من أجل نشر قيم الخير والصلاح بين الناس.

وهذا يدعو – بلا ريب – إلى تحديد الخصائص والمزايا العامة التي اتسمت به لغة البلاغ القرآني والبيان النبوي في دعوة الناس وهدايتهم وإصلاحهم، ومقارنة هذا بواقع الخطاب الدعوي المعاصر ومدى تحليه بهذه الخصائص والأوصاف العامة.

الخصائص العامة للغة الخطاب الدعوي :

أولا : الوضوح واليسر :إن وضوح اللغة وسهولة فهمها والقدرة على إدراك معانيها من غير مشقة ولا عنت هي من الخصائص التي تميزت بها لغة الخطاب

---

(١) أخرجه البخاري باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، حديث رقم 3083.

الدعوي في القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد نبّه الله تعالى إلى هذه الخاصية التي تتميز به لغة القرآن حين أخبر عن كتابه الكريم بأنه بيان للناس فقال : (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) (138)، وحين وصف كتابه في أكثر من موطن بأن من أوصافه الملازمة له أنه واضح وظاهر وجلي : فقال (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) يوسف / 1. وقال تعالى : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يَهدي به الله من اتبع رضوانه سُبُل السلام ويُخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهدي إلى صراط مستقيم) المائدة / 5.

وقد ورد في معاني المبين : أي الواضح الذي لا تشتبه على العرب معانيه لنزوله بلسانهم[١].

ولا ريب بأن وضوح اللغة في الخطاب الدعوي من شأنه أن يرفع من مستوى التواصل مع الأفراد المخاطبين، ومن القدرة على التفاعل معهم والتأثير عليهم وإحداث التغيير المنشود في سلوكهم وحياتهم، حتى إذا جنح الخطاب إلى الإبهام والخفاء والإلغاز في الألفاظ والتركيب والأسلوب كان هذا سببا في تضييق دائرة الاتصال وربما إلى إغلاقها بالكلية.

وبالرغم من وضوح لغة القرآن الكريم في الدلالة على معانيه فإنها لم تغلق الباب أمام اكتشاف معان متجددة قد لا يكون المتلقي للخطاب القرآني أدركها أول الأمر، وهذا من خواص القرآن أن وضوحه في دلالته على معناه يترك مساحة للتأمل والنظر والاجتهاد في فهم معان ودلالات جديدة أخرى، وهذا ما عبر عنه الشيخ عبد العظيم الزرقاني بقوله: "جمع القرآن بين الإجمال والبيان مع أنهما غايتان متقابلتان لا يجتمعان في كلام واحد للناس، بل كلامهم إما مجمل وإما مبيّن، لأن الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان، وإما خفية المعنى تحتاج

---

(١) الزمخشري / الكشاف : 2/ 440.

إلى بيان، ولكن القرآن وحده هو الذي انخرقت له العادة فتسمع الجملة منه وإذا هي بينة مجملة في آن واحد، أما أنها بيّنة أو مبيّنة بتشديد الياء وفتحها، فلأنها واضحة المغزى وضوحا يريح النفس من عناء التنقيب والبحث لأول وهلة، فإذا أمعنت النظر فيها لاحت منها معان جديدة كلها صحيح أو محتمل لأن يكون صحيحا، وكلما أمعنت فيها النظر زادتك من المعارف والأسرار بقدر ما تصيب أنت من النظر وما تحمل من الاستعداد على حد قول القائل:

يزيدك وجهه حسنا.. إذا ما زدته نظرا.

ولهذا السر وسِع كتاب الله جميع أصحاب المذهب الحضر من أبناء البشر، ووجد أصحاب هذه المذاهب المختلفة والمشارب المتباينة شفاء أنفسهم وعقولهم فيه[١]".

هذا، وإذا نظرنا إلى السنة النبوية لوجدنا أن النهوض بواجب البيان والتوضيح لحقائق الدين وأحكامه هو جزء من المهمة التي أوكلت إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) النحل / (44)، ولهذا فقد كان حريصا عليه الصلاة والسلام على وضوح لغة خطابه النبوي حتى ينهض بواجبه الرسالي والبياني على أكمل وجه، إذ إن تحقيق البيان لا يتأتى بلغة مجملة أو متشابهة يعتريها الغموض والخفاء والإبهام ولا يدرى حقيقة المقصود منها.

وإن من صور حرصه صلى الله عليه على وضوح خطابه أنه كان إذا انتقى لفظا من لغة العرب وأراد منه معنى جديدا مخالفا للمعنى المعهود في اللسان العربي اتبعه بالتفسير والبيان الذي يزيل الإشكال ويرفع الإبهام ويبدد الخفاء، ومن

---

(١) عبدالعظيم الزرقاني / مناهل العرفان : 232/2.

هذا مثلا ما ورد في الحديث "عن أبى هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال " أتدرون ما المفلس ". قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال " إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار "(١).

حيث قدّم الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث معنى جديدا للإفلاس لم يكن معلوما ولا واضحا عند المخاطبين من قبل، ولهذا فقد احتاج إلى بيانه وتوضيحه من خلال كشفه عن البعد الأخلاقي والقيمي الجديد الذي صار اللفظ يدل عليه.

ويلاحظ هنا كيف استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوظّف مفردات اللغة وتراكيبها من أجل خدمة الرسالة وقيمها ومبادئها، وان يضيف إلى معاني ألفاظها وتراكيبها دلالات جديدة تعكس قيم الإسلام وأخلاقه ومقاصده العليا.

وإذا نظرنا إلى لغة الخطاب الدعوي المعاصر من حيث وضوحها وبيانها ومدى استجماعها للخاصية التي اتسم بها البلاغ القرآني والبيان النبوي، فسنجد أن لغة الخطاب المعاصر ليست على درجة واحدة من حيث التزامها بهذه الخاصية ؛ فهناك خطاب ملتزم بوضوح لغته وبيان معانيه، وهذا الخطاب يجد قدرة على التواصل مع الآخرين والتأثير بهم.

---

(١) أخرجه مسلم باب تحريم الظلم، حديث رقم 6744

وثمة خطابات أخرى تميل إلى التكلف والتنطع والإبهام ما يجعل خطاباتها غير قادرة على النفاذ في أوساط الناس، ولا في تحقيق أهداف الخطاب من الإصلاح والتغيير المطلوب.

ولعله من المناسب في هذا السياق الإشارة إلى أن ضرورة الوضوح في لغة الخطاب الدعوي المعاصر لا يسوّغ البتة اطمئنان بعض الدعاة المعاصرين إلى الاعتماد على اللهجات العامية والمحلية لتكون بديلا عن اللغة العربية الفصيحة، كما لا يسوغ إقحام المفردات الأجنبية في سياق الخطاب الدعوي من أجل التبسط في الأسلوب وتيسير عملية الفهم، ذلك أن الدعوة إلى تعزيز العامية في الخطاب تنطوي على الدعوة إلى هجر القرآن الكريم وإنشاء جيل مسلم من غير قرآن، وعربي من غير عربية.

واللغة ليست مجرد رموز، وإنما هي جزء من دينها وعقيدتها، و مرآة لشخصية الأمة وطرائق تفكيرها وهي قطعة من تاريخ الأمة، فمن عرف اللغة فقد عرف الأمة وعقيدتها ودينها [١]. وحريّ بالدعاة والمصلحين، وهم حراس الدين وحماة الشريعة، أن يكونوا أحرص الناس على لغة القرآن الكريم والذود عنها، وألا يكونوا الأداة التي تهدم بها حصون العربية وتنقض بها أركانها وقواعدها، من حيث لا يريدون ولا يقصدون، وقد قال ابن تيمية من قبل : "إن اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا باللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب".

وأجدد في هذا المقام الدعوة التي نادى بها المخلصون والصادقون من أبناء هذه الأمة في التحذير من التهاون في نشر العامية "ذلك أن الدعوة إلى العامية

---

(١) انظر: مازن المبارك / نحو وعي لغوي ص 47.

دعوة جاهل أو شعوبي، وهي لا تعني اجتماعيا غير التقاطع والانزواء في قوقعة المجتمعات الضيقة . ولا تعني قوميا وسياسيا غير تفكيك وحدة الأمة وتمزيق شعوبها والإكثار من كيانتها المتجزئة. ولا تعني إسلاميا غير إنشاء جيل بلا قرآن.

وأن حماية الأمة ليست بحماية أرضها فقط ولكنها قبل ذلك بحماية لغتها من الضعف والاضمحلال والضياع [١]".

ثانيا: الواقعية والعصرية:

يقصد بواقعية اللغة وعصريتها في الخطاب الدعوي : أن تكون مفردات الخطاب وأسلوبه وتراكيبه وجميع أشكال التعبير اللغوي المستعملة فيه مراعية لطبيعة الواقع والعصر والزمان الذي يوجّه فيه الخطاب.

وإن الواقع المطلوب مراعاته في لغة الخطاب يشمل الواقع بجميع أشكاله وصوره ومستوياته وأنواعه، فيشمل واقع الفرد والمجتمع والأمة والإنسانية كلها.

فالخطاب الدعوي الناجح هو الذي يراعي في تحديد مفرداته وتراكيبه وأسلوبه وجميع وجوه نشاطه اللغوي فيه واقع المخاطب نفسه وطبيعته، فالخطاب الدعوي الموجّه للصغار مثلا يختلف في مفرداته وتراكيبه وأسلوبه عن اللغة الموجهة للكبار، واللغة المستعملة مع الشباب تختلف عن اللغة مع الشيوخ، وما يقال للنساء قد يختلف عما ما يقال للرجال، وما يخاطب به المختصون والعلماء والنخبة ينبغي أن يختلف في لغته وأسلوبه ومفرداته عما يخاطب به عوام الناس.

---

(١) مازن المبارك / نحو وعي لغوي ص 22

ولقد ترجم البخاري في صحيحه: باب من خصّ بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا ، وذكر فيه قول علي رضي الله عنه : حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله [١].

وقد جاء في شرح هذا الأثر: أي إذا حدث الناس بما يشتبه عليهم ولا يعرفونه ربما كذبوا بما جاء عن الله تعالى أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم.

وهذا يعني أن عدم مراعاة طبيعة المخاطب في اختيار نوع الخطاب ولغته قد يكون سببا في التأثير سلبا على الدعوة نفسها نتيجة سوء اختيار الألفاظ والعبارات المناسبة، ما يجعل الخطاب غير مقبول ولا مؤثر في نفوس المخاطَبين.

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معاذ بن جبل إلى اليمن فقال : "إنك تأتي قوماً أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك فأعلمهم أن الله عز وجل افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك فأعلمهم أن الله عز وجل قد افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم فتوضع في فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله عز وجل حجاب [٢]".

---

(١) صحيح البخاري باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا، حديث رقم 127.

(٢) صحيح البخاري باب أخذ الصدقة من الأغنياء، حديث رقم 1496.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني معلقا على هذا الحديث : إنك تقدم على قوم أهل كتاب هي كالتوطئة للوصية لتستجمع همته عليها لكون أهل الكتاب أهل علم بالجملة فلا يكون العناية في مخاطبتهم كمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان(١).

ويخطئُ بعض الدعاة في عصرنا عندما تغيب عن لغة خطاباهم الفقه والعلم بطبيعة العصر والواقع الذي نعيشه، فلا يميز بين اللغة التي تصلح للخطاب الدعوي الموجه في القرية والريف أو في إقليم خاص، وبين لغة الخطاب الموجه إلى العالم كله في عصر العولمة وسهولة الاتصالات.

وإن من العجيب أن يبقى بعض الدعاة على نفس الأسلوب القديم في الخطاب وعلى نفس المفردات والمصطلحات القديمة التي كانت معهودة ومتداولة في عصور سابقة، بالرغم من أنها ليست من الألفاظ التي قد تعبدنا الله بها حتى يتشبثوا بها ويصروا على استعمالها في خطاباتهم الدعوية!

ومن ذلك مثلا مصطلح دار الحرب فهو مصطلح متداول ومشهور في الكتب الفقهية القديمة بناء على قسمة العالم إلى دار إسلام؛ وهي التي تظهر فيها أحكام الإسلام وشعائره، ودار حرب؛ وهي التي لا تظهر فيها أحكام الإسلام وشعائره، فمثل هذا المصطلح ليس من المصطلحات التوقيفية المتعبد بها حتى يصرّ بعض الدعاة على استعماله للتعبير عن البلاد غير الإسلامية، وقد كان هذا التعبير يتناسب مع طبيعة العصر والزمان وطبيعة العلاقات الدولية التي كانت في ذلك الوقت.

أما في عصرنا وقد أصبح العالم كله مرتبطا بميثاق دولي هو ميثاق الأمم المتحدة، فإن البلاد غير الإسلامية كلها قد غدت بالنسبة للمسلمين دار عهد،

---

(١) ابن حجر العسقلاني / فتح الباري شرح صحيح البخاري : 358/3.

وأهلها هم أهل عهد وأمان، وذلك بموجب العهد والميثاق الدولي الذي يجب الوفاء به والالتزام بمقتضياته.

على أنه يستثنى من هذا : الدول التي صدر منها عدوان على المسلمين أو احتلال لأرضهم أو انتهاك لمقدساتهم كما هو الحال بالنسبة للكيان الصهيوني(١).

وإن من واقعية الخطاب أن يختار لغير المسلمين الذين يعيشون في بلاد غير إسلامية مصطلح (أمة الدعوة) لأنهم محل لدعوتهم إلى رسالة الإسلام ودعوة الإسلام، فهذا ألصق بالواقع من أن يعبّر عنهم بأهل الحرب ما داموا لم يوجهوا إلى المسلمين أي أعمال عدوانية.

وإن الناظر في القرآن الكريم ليجد أنه كان يراعي في مفرداته وألفاظه وتراكيبه وأساليبه طبيعة الواقع والحال الذي ورد فيه، فالخطاب المكي مثلاً، وهو ما تنزل من القرآن قبل الهجرة، مختلف في مفرداته وكثير من مصطلحاته وأسلوب الخطاب فيه عن الخطاب المدني، وهو ما نزل من القرآن بعد الهجرة، وقد ذكر علماء التفسير بعض الضوابط المميزة للقرآن المكي عن المدني التي منها : (٢) أنه في القرآن المكي يكثر الخطاب بـ(يا أيها الناس) و(يا بني آدم) وفي القرآن المدني يكثر الخطاب بـ(يا أيها الذين آمنوا).

وفي الخطاب المكي كان التركيز على قضايا التوحيد والبعث والنشور واليوم الآخر وذكر أخبار الأمم الماضية، بينما في الخطاب المدني أضيفت قضايا جديدة كأحكام الحدود والمواريث وغيرها من الأحكام التفصيلية التي صارت واقعية بعد إقامة الدولة في المدينة.

---

(١) انظر : يوسف القرضاوي / فقه الجهاد ص 907.

(٢) انظر :الزرقاني / مناهل العرفان: 139/1.

وفي الخطاب المكي لم يكن فيه ذكر لمصطلح (المنافقين)، بينما في الخطاب المدني كثر ذكر هذا المصطلح الجديد، حتى أفردت سورة خاصة تتحدث عنه وعن أهله، وتكشف حقيقتهم وتحلل نفسيتهم وطبيعتهم.

وهذا كله يظهر أن اعتبار الملابسات والمقتضيات الخاصة في لغة الخطاب الدعوي ليس تمييعا للدعوة، ولا تطويعا لها على حسب ما يظن البعض، وإنما هو إتباع للمنهج الأصيل الذي تأصّل في القرآن الكريم وتأكد في السنة المطهرة.

ثالثا : الجمال والتنوع:

إن اتصاف الخطاب بجمال اللغة وحسن البيان يعدُّ من أبرز العوامل التي تمكّنه من التأثير في المخاطبين وحضّهم على التفاعل معه والانجذاب إليه.

وقد كان لهذه الخاصية التي وصلت إلى درجة الإعجاز في لغة القرآن الكريم الدور الكبير في إقبال الناس عليه وانجذابهم إليه واستيلائه على قلوبهم وعقولهم، حتى إن المعاندين للدعوة والرسالة لم يملكوا أن يقاوموا جمالية اللغة القرآنية التي وصلت بهم إلى درجة الانبهار بل الإقرار بعظمة القرآن وأنه ليس من كلام البشر، وقد عبر عن هذا الوليد بن المغيرة بقوله: "فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته[١]".

ويجد الباحث في لغة القرآن الكريم أنواعا وصورا كثيرة لجمالية اللغة القرآنية، وقد كشف الشيخ محمد عبد الله دراز عن العديد من هذه الوجوه المختلفة للجمال اللغوي في القرآن الكريم، فبين أنه "جميل في إيقاعه وتوزيع حركاته وسكناته،

---

(١) الحاكم النيسابوري / المستدرك باب تفسير سورة المدثر، حديث رقم 3872.

ومداته وغُنَّاته، فإذا سمعت من يقرأ القرآن الكريم و يرتله حق ترتيله فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب، لا تجده في كلام آخر لو جرد هذا التجريد، وجود هذا التجويد.

وستجد اتساقًا وائتلافًا يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر، وستجد شيئًا آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر. ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتًا بيتًا، وشطرًا شطرًا، وتسمع القطعة من الموسيقى فإذا هي تتشابه أهواؤها وتذهب مذهبًا متقاربًا. فلا يلبث سمعك أن يمجها، وطبعك أن يملها، إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد. بينما أنت من القرآن أبدًا في لحن متنوع متجدد، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل على أوضاع مختلفة، يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم. بل لا تفتأ تطلب منه المزيد.

هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب. فكيف يخفى على العرب أنفسهم؟"

ثم هو جميل في رصف حروفه وتأليفها من مجموعات مؤتلفة مختلفة:

فإذا ما اقتربت بأذن المخاطب قليلًا قليلًا، فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة، فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها؛ هذا ينقر وذاك يصفر، وثالث يخمس ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النفَس، وآخر يحتبس عنده النفس. وهلم جرا، فترى الجمال اللغوي ماثلًا أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة لا كركرة ولا ثرثرة، ولا رخاوة ولا معاظلة، ولا تناكر ولا تنافر.

ثم هو جميل في ألفاظه ومفرداته وأساليبه التي تجمع بين القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى من غير أن يطغى أحد الجانبين على الآخر. وبين خطاب العامة وخطاب الخاصة، وإقناع العقل وإمتاع العاطفة [١].

وإن من مظاهر الجمال في لغة الخطاب الدعوي في القرآن الكريم: التنوع واختلاف الأساليب والطرق في تقرير المعاني والأحكام، فتجد المعنى الواحد تتعدد أساليبه وصوره، ومن ذلك مثلا أسلوب الأمر والنهي في القرآن الكريم، الذي جاء متنوعا ومختلفا ولم يمض على طريقة واحدة أو نسق واحد.

وقد أحصى العز بن عبدالسلام، ثلاثة وثلاثين أسلوبا مضى عليه القرآن الكريم في طلب الفعل والأمر به، فقال :"كل فعل كسبي عظّمه الشرع، أو مدحه، أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به، أو أحبه، أو أحب فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله أو وصفه بالاستقامة أو البركة أو الطيب، أو أقسم به أو بفاعله، أو نصبه سببا لمحبته أو لثواب عاجل أو آجل، أو نصبه سببا لذكره أو لشكره أو لهدايته أو لإرضاء فاعله أو لمغفرة ذنبه أو لتكفيره أو لقبوله أو لنصرة فاعله أو بشارته، أو وصف فاعله بالطيب، أو وصفه بكونه معروفا، أو نفى الحزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سببا لولاية الله تعالى، أو وصف فاعله بالهداية، أو وصفه بصفة مدح: كالحياة والنور والشفاء، أو دعا الله به الأنبياء فهو مأمور به[٢]".

كما أحصى سبعة وأربعين أسلوبا للنهي عن الفعل :"كل فعل كسبي طلب الشارع تركه، أو عتب على فعله، أو ذمّه أو ذمّ فاعله لأجله، أو مقته أو مقته فاعله لأجله، أو نفى محبته إياه أو محبة فاعله، أو نفى الرضا به أو نفى الرضا

---

(١) محمد عبدالله دراز / النبأ العظيم ص 141 -153.

(٢) عز الدين ابن عبدالسلام / الإمام في بيان أدلة الأحكام ص 3.

عن فاعله، أو شبه فاعله بالبهائم أو الشياطين، أو نصبه مانعاً من الهدى أو من القبول، أو وصفه بسوء أو كراهة، أو استعاذ الأنبياء منه أو بغضوه، أو نصب سبباً لنفي الفلاح أو لعذاب عاجل أو آجل أو لذم أو لوم أو لضلالة أو معصية، أو وصف بخبث أو رجس أو نجس أو بكونه إثما أو فسقا أو سببا لإثم أو زجر أو لعن أو غضب أو زوال نعمة أو حلول نقمة، أو حدّ من الحدود ، أو لارتهان النفوس أو لقسوة أو خزي عاجل أو آجل، أو لتوبيخ عاجل أو آجل أو لعداوة الله تعالى أو محاربته أو لاستهزائه وسخريته، أو جعله الرب سببا لنسيانه، أو وصف نفسه بالصبر عليه أو بالحلم أو بالصفح عنه أو العفو عنه أو المغفرة لفاعله أو التوبة منه في أكثر المواضع، أو وصف فاعله بخبث أو احتقار، أو نسبه إلى عمل الشيطان أو تزيينه أو تولي الشيطان فاعله، أو وصفه بصفة ذم كالظلمة والمرض وتبرأ الأنبياء منه أو من فاعله أو شكَوا إلى الله من فاعله أو جاهروا فاعله بالبراءة والعداوة، أو نُهي الأنبياء عن الأسى والحزن على فاعله،أو نصب سببا لخيبة عاجلة أو آجلة، أو رتب عليه حرمان الجنة وما فيها، أو وصف فاعله بأنه عدو الله أو بأن الله عدوه، أو حمل فاعله إثم غيره، أو يلاعن فاعلوه في الآخرة، أو تبرأ بعضهم من بعض، أو دعا بعضهم على بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، أو سئل فاعله عن علته في غالب الأمر بعرف الاستعمال، أو نهي الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إبعاد أو طرد أو لفظ قتل، أو وصف الرب نفسه بالغيرة منه، فكل ذلك منهي عنه وكل ذلك راجع إلى الذم والوعيد [١]".

وقد أورد العز بن عبدالسلام لكل هذه الأساليب والطرق أمثلة وشواهد من أدلة الشرع تظهر جمالية وسعة اللغة في الخطاب الدعوي إذ لم تقتصر على أسلوب واحد لطلب الفعل أو الترك، وإنما تنوع الأسلوب فيها بما يحمل المخاطبين على الاستجابة والالتزام بمضمون الخطاب وموضوعه عن رضا وطواعية.

---

(١) عز الدين ابن عبدالسلام / الإمام في بيان أدلة الأحكام ص 10.

وإن هذه الخاصية التي تميّزت به لغة الخطاب في القرآن الكريم تتطلب من الدعاة –اليوم – تجويد خطابهم وتحسينه وتجميله في شكله ولغته وأساليبه ومفرداته، وفي مضمونه ومعانيه وأفكاره التي تنطوي عليه أيضا، فذلك أدعى إلى قبول الناس به واستجابتهم له، إذ النفوس مطبوعة على حب الجمال والميل له، وقد ذكر ابن عبدالبر في معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (إن من البيان لسحرا)" [١] وفي هذا الحديث ما يدل على أن التعجب من الإحسان والبيان موجود في طباع ذوي العقول والبلاغة، وكان صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم إلا أنه بإنصافه كان يعرف لكل ذي فضل فضله، وفي هذا ما يدل على أن أبصر الناس بالشيء أشدهم فرحا بالجيد منه ما لم يكن حسودا، وإنما يحمد العلماء البلاغة واللسانة ما لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطناب والتفيهق، فقد روي في الثرثارين المتفيهقين أنهم أبغض الناس إلى الله ورسوله، وهذا والله أعلم إذا كان ممن يحاول تزيين الباطل وتحسينه بلفظه ويريد إقامته في صورة الحق، فهذا هو المكروه الذي ورد فيه التغليظ، وأما قول الحق فحسن جميل على كل حال كان فيه إطناب أو لم يكن إذا لم يتجاوز الحق، وإن كنت أحب أوساط الأمور، فإن ذلك أعدلها والذي اتفق العلماء باللغة في مدحه من البلاغة والإيجاز والاختصار وإدراك المعاني الجسيمة بالألفاظ اليسيرة[٢]".

رابعاً: الوسطية والاعتدال :

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ، باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله، حديث 2074، وأحمد في المسند حديث 4651.

(٢) ابن عبدالبر / التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد 176/5 .

الوسطية والاعتدال هي من أعظم خصائص الإسلام وأوصافه العامة ، ولقد قرر القرآن الكريم هذه الخاصية الأصيلة باعتبارها واحدة من أخص مزايا الإسلام التي يتفرد بها عن غيره من المناهج والدعوات الأخرى قال الله تعالى {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} البقرة / 143.

وتتمثل وسطية الإسلام في توازنه واعتداله بحيث لا يميل إلى أي من الأطراف المتباينة المتقابلة التي يعدُّ الميل إلى أحد طرفيها مع التقصير في الآخر ظلما وطغيانا، كالروحية والمادية، والفردية والجماعية، والعقل والعاطفة، والعبادة والمعاملة، وغيرها من الأطراف المتقابلة الأخرى التي أعطى الإسلام لكل طرف منها مجاله وميدانه، من غير وكس ولا شطط ولا غلو ولا تقصير ولا طغيان ولا إخسار [١].

وقد انعكست وسطية الرسالة وتوازنها واعتدالها على لغة الخطاب الدعوي نفسه ؛ حيث يجد الدارس للخطابات الشرعية في القرآن الكريم والسنة النبوية أنها قد زخرت بالمفردات والجمل والتراكيب التي تتحدث عن الأمور المتقابلة دون أن يطغى أحد الجانبين على الآخر، فالخطاب القرآني إذ يزخر بالحديث عن الحياة الآخرة مثلا وما فيها من جزاء وحساب مشاهد وأحداث وعذاب ونعيم وجنة ونار، فإنه يتحدث في الوقت نفسه عن الحياة الدنيا وعمارتها وإصلاحها وتنظيم شؤونها وكيفية تحقيق مصالح الناس فيها، ووجوب التصدي للفساد والمفسدين فيها.

ومثلما نجد في القرآن والسنة المفردات والألفاظ التي تتدرج في زمرة العبادات كالصلاة والصيام والزكاة والحج، فإننا نجد في المقابل الألفاظ الأخرى التي تتناول

---

(١) انظر في خاصية الوسطية ومعناها : يوسف القرضاوي / الخصائص العامة للإسلام ص 119-148.

أحكام المعاملات المالية؛ كالرهن والبيع والدين والإجارة، ومفردات أخرى تتحدث عن أمور الأسرة؛ كالنكاح، والطلاق والنفقة والخلع والميراث، ومصطلحات ومفردات تتحدث عن أمور الحكم والدولة، كالشورى والعدل والحكم بما أنزل الله، إلى غيرها من المفردات والمصطلحات والتراكيب المبثوثة في أرجاء الكتاب والسنة التي عبرت أصدق تعبير عن وسطية الإسلام واعتداله وتوازنه.

وإن من المؤسف أن يتنكب بعض الدعاة المعاصرين هذا المنهج الوسطي الذي مضى عليه القرآن الكريم والسنة المطهرة وأن يلجأوا إلى المبالغة والإسراف في تناول بعض القضايا الفرعية لتصبح هي القضية المركزية الكبرى التي يدور حولها خطابهم الدعوي، كالإسراف مثلا في الحديث عن عذاب القبر ونعيمه وأحوال أهله وحشد النصوص التي لا يصح الكثير منها من أجل تخويف الناس وترهيبهم.

أو الإسراف في الحديث عن الجان والسحر والعين والمس وعلاقة الجن بالإنس، إلى غيرها من المفردات الأخرى التي صارت سمة عامة لبعض البرامج الدعوية، وصارت تستهوي بعض الدعاة المعاصرين لما فيها من استمالة لجمهور كبير من عامة الناس.

بينما تغيب عن هذا الخطاب نفسه : مفردات أساسية هي من جوهر الدين وأصول الشريعة مثل : الحرية والمساواة، والإصلاح والتغيير، والشورى والعدل، وحق الشعوب في اختيار ممثليها، وغيرها من القضايا الجوهرية التي أخذت مساحة كبيرة في الخطاب الدعوي الشرعي الأصيل.

وقد ذكر الشيخ يوسف القرضاوي معيارا مهما ينبغي الاهتمام به لتحقيق الوسطية والتوازن في تناول الموضوعات الدعوية فقال : "أن نهتم بالأشياء على

قدر اهتمام القرآن بها، فما أولاه القرآن عناية وفسح له المجال في سوره وآياته وكرره، وأكده بصورة وأخرى، فهذا دليل على أهميته وضرورته في الدين ويجب إعطاؤه من المساحة والعناية ما يليق به.

وما أولاه القرآن عناية أقل كأن لم يذكره إلا مرة أو مرتين فيجب أن يعطى من الاهتمام مثل ذلك.

وما أهمله القرآن الكريم تماما ولم يكن له ذكر فينبغي ألا نعيره اهتماما ما لم توجد عوامل أخرى تقتضي التنويه به، لسبب أو آخر، فتقدر بقدرها" (١).

وهناك أمر آخر يفرضه اعتدال اللغة في الخطاب الدعوي وبعدها عن الغلو والتطرف، وهو أن يبتعد عن استعمال الألفاظ والكلمات المصطلحات التي قد تترك آثارا سلبية في نفوس بعض المخاطبين اليوم، ومن هذا مثلا مصطلح أهل الذمة فمثل هذا المصطلح قد يتأذى منه غير المسلمين الذين يعيشون في المجتمع المسلم، ويشعرون بنوع من الانتقاص لكرامتهم وحقوقهم داخل المجتمع المسلم، وقد أصبح مصطلح المواطنة هو الأنسب للتعبير عن أهل البلاد كلهم سواء أكونوا مسلمين أم غير مسلمين، وإن عدم استعمال اللفظ الذي يثير الحساسية لا يتعارض مع شيء من أحكام شريعتنا أو مقررات ديننا، ما دام ليس من الألفاظ التي قد تعبدنا الله بها (٢).

---

(١) خطابنا الإسلامي في عصر العولمة ص 39.

(٢) انظر : خطابنا الإسلامي في عصر العولمة ص 50

وقد ذكر الشيخ الطاهر ابن عاشور : "أن نوط الأحكام الشرعية الأحكام الشرعية بمعان وأوصاف لا بأسماء وأشكال"[١] أي أن أحكام الشريعة الإسلامية إنما تتعلق بمعاني الأشياء ومصالحها الحقيقية التي تترتب عليها، لا بأسمائها وصورها الشكلية التي تلوح منها في الظاهر فمناط الحكم الشرعي في قصد الشارع واعتباره ليس اسم الفعل وصورته، وإنما حقيقته وما يترتب عليه من مصلحة أو مفسدة.

ومن وسطية لغة الخطاب الدعوي واعتداله : بعده عن الإفراط والغلو واستعماله لغة وسطية معتدلة تتسع لقبول الآخر في القضايا الخلافية التي تحتمل تعدد وجهات النظر، وتحتمل اختلاف الآراء والإفهام ، ذلك أن العديد من المسائل والقضايا المختلف فيها هي في حقيقتها قضايا ظنية واجتهادية وفيها مساحة واسعة لتعدد التقديرات والأحكام، فلا يصح والحال كذلك أن يستعمل فيها من أحد الأطراف المختلفين لغة قطعية حاسمة بحيث يرمي الآخرين بالجهل والضلال أو الفساد ، ويصنفهم بأنهم خارجون على قطعيات الدين وثوابت الشرع، ولقد عبر الإمام أبو حنيفة عن هذا البعد الوسطي في لغة الخطاب حين قال : ""علمنا هذا رأي وهو أحسن ما قدرنا عليه، ومن جاءنا بأحسن من قبلناه[٢]".

ويلاحظ غياب هذا المعنى الأصيل عن بعض الخطابات الدعوية المعاصرة التي تقدم نفسها بلغة فيها قدر كبير من الاستعلاء والفوقية واعتبار نفسها الوصية على الدين، فما تقوله فهو الحق، وما عداه فهو الباطل والضلال، ولا تقبل مبدأ الاعتراف بحق الآخر في مخالفتها الرأي والتفكير.

---

(١) محمد الطاهر ابن عاشور / مقاصد الشريعة الإسلامية ص 346.

(٢) طه جابر العلواني / أدب الاختلاف في الإسلام ص 93.

ومثل هذه اللغة الإقصائية قد غدت وللأسف خاصية تتميز بها بعض الخطابات الدعوية المعاصرة التي لا ترى في الآخرين إلا قطعانا من الضوال الذين ليس لهم أن يناقشوا أو يفكروا أو يعترضوا على ما يقوله أئمة الهدى والعلم !

وأرى أن مثل هذه اللغة تجافي منهج القرآن نفسه الذي جعل مساحة واسعة للحوار والتعايش مع الآخر بالرغم من الاختلاف معه في الفكر والمنهج والسلوك فقال :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) المائدة / (64)

وقال سبحانه : (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) العنكبوت / (46)

و قد غاب عن أدبيات بعض العاملين في حقل الدعوة إلى الله أن نجاح الخطاب الإسلامي يعتمد بشكل كبير على اللغة المستعملة في الخطاب التي تستطيع أن تستوعب الآخر وتستفيد من تجاربه وخبراته وإمكاناته ثم توظفها في خدمة قضايا الأمة الكلية ومصالحها العامة، وان لغة الخطاب المبينة على الشعور بالفوقية والازدراء للآخرين لا تزيد الناس إلا بعدا ونفورا عن الخطاب وأصحابه.

ولعل هذا النزعة الاستعلائية هي صورة من صور (التشدق) و(التفيهق) التي ذمها رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ بيّن أن أصحابها هم من أبغض الناس إليه صلى الله عليه وسلم فقال:

(إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا. وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون.

قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون ؟ قال المتكبرون)[١].

وقد ذكر أهل الحديث أن من معاني التشدق: المستهزئ بالناس يلوي شدقه بهم وعليهم.

ولا يتسع المقام في هذه الورقة لذكر جميع شواهد وصور هذه الخصائص في الخطاب الدعوي المعاصر غير أننا نجد أن كثيرا من الخطابات الدعوية المعاصرة ما زالت تفتقر إلى تحلي لغتها بالخصائص العامة التي تميزت به لغة الخطاب الدعوي الأصيل في القرآن والسنة، إما لما يشوبها من غموض وإبهام، أو لأنها عجزت عن توظيف اللغة في استيعاب قضايا العصر ومستجداته وبقيت محكومة بمصطلحات الماضي وألفاظه التي كانت تتناسب مع طبيعة الزمان الذي وردت فيه ، أو لانحرافها عن نهج الوسطية والاعتدال والرشد في أسلوبها وألفاظها وطريقتها، وهذا يدعو إلى مراجعة شاملة للغة الخطاب الدعوي المعاصر وتحديد جوانب القصور والنقص الذي تعتريه، ورصد وجوه الخلل فيه، والنظر في كيفية تجاوز ذلك كله حتى يكون الخطاب الدعوي المعاصر قادرا على تحقيق أهدافه في إصلاح الفرد والمجتمع والأمة، وفي نشر الخير للإنسانية جميعها.

المصادر والمراجع

---

(١) أخرجه الترمذي حديث رقم 2018

ابن عاشور: محمد الطاهر / مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق محمد الطاهر الميساوي، ط2، دار النفائس، عمان 1421هـ -2001م.

ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير: الدار التونسية للنشر – تونس.

ابن عبدالبر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد /التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوى ومحمد عبد الكبير البكرى.

ابن عبدالسلام: أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الحسن السلمي الدمشقي / الإمام في بيان أدلة الأحكام، تحقيق: رضوان مختار بن غربية

ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر / تفسير القرآن العظيم، دار الفكر – بيروت.

أبو داود: سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي/ سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.

البيانوني: محمد أبو الفتح المدخل إلى علم الدعوة ،ط1، مؤسسة الرسالة، 1412هـ -1991م، بيروت –لبنان.

الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى / الجامع الصحيح، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون دار إحياء التراث العربي – بيروت.

دراز: محمد بن عبد الله، النبأ العظيم، اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية، دار القلم للنشر والتوزيع، 1426هـ- 2005م، بيروت.

الزرقاني: محمد عبدالعظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط3، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

الزمخشري: جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الطبعة: الثالثة - 1407 هـ، دار الكتاب العربي – بيروت.

العسقلاني : أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر / فتح الباري شرح صحيح البخاري: تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه وذكر أطرافها: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار الفكر.

العلواني : طه جابر / أدب الاختلاف في الإسلام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا – الولايات المتحدة الأميريكية، 1987 م

القرضاوي: يوسف/ فقه الجهاد، ط1، مكتبة وهبة، م، مصر.

- الخصائص العامة للإسلام، ط1، 1397هـ –1977م، مكتبة وهبة، مصر.

- خطابنا الإسلامي في عصر العولمة، ط3، 2009م، دار الشروق – مصر.

المبارك: مازن / نحو وعي لغوي، ط1، 1399هـ –1977م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

مساري: بشير مساري لغة الخطاب الدعوي، ط1، 1433هـ، كتاب الأمة العدد 143، وزارة الأوقاف، قطر.

مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح، دار الجيل بيروت.

النيسابوري : أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه المستدرك على الصحيحين، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا، ط1 دار الكتب العلمية – بيروت.

التعليقات والمناقشات

- **د. سرى سبع العيش**

تتساءل: لماذا نتخوَّف من بعض الكلمات والتعابير العربية الأصيلة التي لها معنى جميل، مثل كلمة أهل الذمة التي حذَّر من استعمالها د. الكيلاني.

وتستغرب: لِمَ هذا التحذير؟!، فأهل الذمة تعني استحقاق هؤلاء للرعاية والعناية والتسامح معهم في شعائرهم الدينية واحترامهم، وقد حظوا بهذا الاحترام طيلة حياة الأمة الإسلامية، وكان لهم حضور ثقافي وأدبي وشعري وطبي، وكان لهم كل الحماية والرعاية.

كما أن هناك ذمماً في البنوك والشركات، هي أموالٌ مستحقّه لا يجوز الجور عليها، وكذلك نقول عن المرأة المتزوجة هي في ذمة رجل، أي أن لها عليه استحقاق الرعاية والحماية، فَلِمَ نحذف كلمة أهل الذمة؟!

- **رد. الدكتور عبدالرحمن الكيلاني**

فيما يتعلق بمصطلح أهل الذمة يقول: أنا لا أطالب بإلغائه وإنما أطالب بتحسين معناه ومضمونه، ثم إعطاء بديل له فيما إذا كان يثير حساسية عند قطاع كبير من أبناء المجتمعات الإسلامية؛ فنحن لا نريد أن يكون الخطاب الدعوي خطاباً تقسيمياً للمجتمع إلى فئات وأقسام. ومصطلح "أهل الذمة" في معناه الأصيل هو معنى جليل، فالذمة تعني العهد والميثاق ولكن استعمال هذا المصطلح الآن –مع وجود مصطلحات أخرى كمصطلح المواطنة– يعني أننا نميز بين أفراد المجتمع المسلم بحيث يكون هناك مواطن من الدرجة الأولى ومواطن من الدرجة الثانية؛ فيثير هذا حساسية عند المتلقي، وبالتالي إذا استعضنا عنه بمصطلح آخر هو المواطنة، فلا أظننا نكون قد خالفنا قاعدة من قواعد الشرع أو حكماً من أحكام الدين؛ لأن هذا المصطلح ليس مصطلحاً توقيفياً أو تعبدياً، كما أن الله لم يتعبدنا بمخاطبة غير المسلمين بأهل الذمة.